

## استدعاء الشخصيات التراثية الهندية

في منظومة « جاويد نامه » للشاعر محمد اقبال

د. د. محمد السعيد جمال الدين(\*)

ربما كانت « جاويد نامه » أكبر تجربة حاول « اقبال » من خلالها التعامل مع الموروث في نفس الوقت الذي يتعرض للواقع الاسلامى عامة ولأحوال الهند خاصة .

كانت الهند في الفترة التي شغل فيها اقبال بنظم « جاويد نامه » ( ١٩٢٩ - ١٩٣١ ) ترزخ تحت نير الاستعمار منذ أكثر من قرنين من الزمان — بينما تتعثر فيها حركة الاستقلال وتخطب افتقارا الى هدف محدد المعالم ، وعلاقة الاخاء والتضامن بين طوائف المجتمع تكاد تكون منعدمة .

وكانت الجماهير الاسلامية الهائلة ، في شبه القارة الهندية وغيرها ، تعاني من الأمية والجهل ويأخذ بخناقها الصراع الطائفي ، وتقاسى بمرارة من الاقطاعيين ، ومن استعباد الأمراء الجائرين .

وبدا العالم الاسلامى يتحول الى شظايا وكيانات منفصلة — بل ومتناحرة — عرضة للتحلل والفناء .

وهكذا تعددت الجبهات التي ينبغى على من ينشد الإصلاح لعالم — حينذاك — أن يحارب فيها ، وبدأت مهمة الشاعر المستنير والسياسى البصير<sup>(١)</sup> عسيرة شاقة ، فقد كان عليه أن يستثير الهمم بقدر ما يعالج المشكلات الناجمة عن التخلف والجهل، ولا يهمل استدعاء أى عامل من العوامل الايجابية في تقدم الأمة بمقدار ما يوضح المخاطر التي تنطوى عليها العوامل السلبية ، مستخدما في ذلك كله الشعر وسحر البيان .

والحق أن منظومة « جاويد نامه » تعد محاولة ناجحة للغاية في هذا السبيل .

---

(\*) أستاذ اللغة الفارسية وآدابها بكلية الآداب جامعة عين شمس ، وعضو رابطة الأدب الاسلامى .

ومنظومة « جاويد نامه » رحلة معراجية ينتقل فيها الشاعر في الأملاك بقيادة مرشده « جلال الدين الرومى » ، وذلك بعد أن يتخلص من قيود الزمان والمكان ، حتى يصل الى الفردوس الأعلى ويرحل عنه طالبا تجلى الجلال ، ويلتقى الشاعر خلال رحلته بين الأملاك بعدد من الشعراء والزهاد والمصلحين والخونة ، كما يلتقى بابليس اللعين ، ويعرض من خلالهم لقضايا الإصلاح السياسى والاجتماعى للعالم الاسلامى . ويختتم الشاعر منظومته بخطاب الى ابنه « جاويد » أو « حديث الى الجيل الجديد » من أبناء الأمة الاسلامية ، لخص فيه الشاعر توجيهاته الاخلاقية لهذا الجيل .

ومن الملاحظ أن اقبالا ناقش قضايا الهند المعاصرة وأبدى آراءه فى هذه القضايا من خلال حواراه مع شخصيات من الهند فى العصور القديمة والحديثة معا ، واستطاع بذلك أن يبدع عملا شديدا الأصالة على الرغم من اعتماده على الأخبار والروايات التى أوردتها المصادر التاريخية والأدبية عن هذه الشخصيات الهندية ، وحرصه على أن يحتفظ لكل واحد منها بسماته المميزة وصفاته المحددة ، لكنه مع ذلك أجرى حوارا مع كل واحدة من هذه الشخصيات حول قضية من القضايا الهندية أو الاسلامية المعاصرة ، والزم نفسه بأن تكون هذه القضية مما لا بد وأن يلقى اهتمام هذه الشخصية التراثية لو أنها كانت تعيش قضايا الحاضر ، بحيث تدلى بدلوها وتجهر برأيها فيها .

قادت هذه الشخصيات فى النهاية وكأن حياتها قد امتدت الى الأزمنة الحاضرة وكأنها قد تفاعلت تفاعلا ايجابيا مع هذه القضايا وأسهمت بآرائها فى حلها ، ونالت بذلك مرتبة الخلود ، فبدأ عمل اقبال فى هذا الصدد وكأنه استجابة للمبدأ الذى نادى به الشاعر والناقد الانجليزى المعاصر ت.س.س اليوت بضرورة تمثّل الشاعر لتراث أمته : « ان خير ما فى عمل الشاعر وأكثر اجزاء هذا العمل فردية هى تلك يثبت فيها أجاده الممتدى خلودهم » (٢) .

ومن الملاحظ أن محمد اقبال نزع فى منظومته « جاويد نامه » منزعا جديدا حين اتجه الى اصفاء نوع من الموضوعية والدرامية على عاطفته الغنائية واستعار بعض تكتيكات الفنون الموضوعية الاخرى كتن المسرحية وفن القصة ، فشاعت فى المنظومة كلها تكتيكات تلك الفنون كالحوار وأسلوب القصص واختلاف الأصوات وتعدددها . كما توحد فيها الموضوع فى إطار واحد .

واستخدم الشاعر الشخصية التاريخية أحيانا لتعبير عن تجربته الذاتية فأتخذ بذلك هذه الشخصيات قناعا بث من خلاله خواطره وأفكاره .

لقد تمثل اقبال التاريخ الفكرى والسياسى لكل واحدة من هذه الشخصيات واستطاع أن يفرزه افرازا جديدا ، ويصل تجربته بمعين لا ينضب من القدرة على الإحياء والتأثير .

وبقدر ما تختلف القضايا التى يطرحها اقبال للحوار مع الشخصيات الهندية بين فلسفية وفكرية وعرفانية وسياسية واجتماعية بقدر ما تنقسم هذه الشخصيات نفسها ما بين مسلم وهندوسى .

وسنعرض فيما يلى لهذه الشخصيات التراثية الهندية لنتعرف على الكيفية التى استطاع أن يستخدم بها اقبال هذه الشخصيات ، وعلى القدرة الذى استعاره من صفات كل منها والدلالة المعاصرة الى أضفناها عليها .

#### ١ — جهان دوست :

كانت أولى الشخصيات التراثية التى استخدمها اقبال فى المرحلة الأولى من رحلته المعراجية « جاويد نامه » فى فلك القمر ، شخصية «جهان دوست» وهو « عارف من أصل هندى جالس تحت شجرة نخيل ، سواد عيونه مضىء بالكحل ، عارى الجسد ، عقد شعره على رأسه ، وحوله ثعبان أبيض يتلوى » وشخصية « جهان دوست » ليست شخصية مبتدعة من نسج خيال الشاعر بل هى شخصية تاريخية اذ يرى المستشرق الايطالى بوسانى (٢) ، ويوسف سليم جشتى (٤) أن « جهان دوست » هذا ليس الا « وشوامتر » الذى كان حاكما لاحدى الولايات الهندية وكان « شتريا » فى الدرجة الثالثة من الترتيب الطبقي الهندوسى — ثم ارتقى الى درجة « برهن » بفضل راضته الروحية وزهده ، ثم نال لقب « راجارش » أى عابد البلاط لسعة علمه وفيض بيانه ، فنقم عليه الحاسدون ، وأرادوا الكيد له بابعاده عن الحياة الروحية فزجوا له بامرأتين جميلتين تزينا له الوقوع فى الخطيئة ، فاستطاعت احداهما الإيقاع به .

يسأل « جهان دوست » شاعرنا بضعة أسئلة فلسفية حول معنى العقل والقلب والروح فيجيب عليه اقبال ، فتنتعش روح العارف الهندى ويفصح

بتسبع حقائق علمية وفلسفية استخدم في بعضها مصطلحات فنية لم تكن معروفة على عهد « وشوامتر » ، كاسلاك البرق والرسائل البرقية مثلا .

ويتسائل الاستاذ يوسف سليم جشتى شارح « جاويد نامه » في اللغة الاردية عن النسب الذي دفع اقبالا الى اختيار « وشوامتر » مع أنه كان وثنيا مشركا ؟ ويرجع ذلك الى ثلاثة أسباب :

١ — ان اقبالا أراد أن يثبت أنه لم يكن متعصبا لطائفة دون أخرى ، وذلك ردا على الاعتراضات التي وجهت اليه بأنه يذكر المسلمين في الهند وحدهم في دواوينه ومؤلفاته .

٢ — أنه أراد أن يوجه رسالة الى أبناء الهند بلسان واحد من علمائهم .

٣ — أنه أراد أن يبين أن وشوامتر مع طول باعه وعلو درجته في الرياضة الروحية لم يبلغ مبلغ جلال الدين الرومي من العلم والمعرفة لأنه يسأل الرومي بضعة أسئلة رئيسية عن العالم ، والانسان ، والله عز وجل — ولو كان عند وشوامتر علم يقينى بهذه الأمور لما كان قد سأل .

وربما كان السبب الثالث — في رأينا — هو السبب الرئيسى في اختيار اقبال لهذه الشخصية التراثية ، اذ يبدو أن اقبالا يرمز بجهان دوست الى المعرفة الناقصة ، وهى المعرفة التى يحصلها الانسان دون اعتماد على مصدر سماوى او على الوحي . ولسنا نقصد بذلك أن نقول ان الأقوال والاشارات التى أوردها اقبال على لسان جهان دوست خاطئة بل هى سليمة ومتمشية مع الروح الاسلامية ، لكنها تبدو مبتورة ليس فيها وحدة أو تماسك ، وتبين أن هذا العالم محور اهتمام العارف الهدى ، وهو الركيزة التى يرتكز عليها كأول درجة فى سلم المعرفة الموصلة الى الحق تعالى ، والدليل على ذلك أنه عندما يتوجه بسؤاله الى الرومي يسأله عن « العالم » فيقول له ، وكأنه لم يتوصل بعد — برغم طول اعتكافه وتفكره — الى الحقيقة . ما العالم ، ما آدم ما الحق ؟

ومهما يكن من أمر ، فان شخصية جهان دوست تبدو — برغم اهتمامها بالأمور الفلسفية وبالرياضة الروحية — معنية بأحوال العالم المحسوس ،

وتعرب عن تفاؤلها بمستقبل الهند خاصة والشرق عامة ، فقد حدث « جهان دوست » ضيفه — الرومى واقبالا — عن أن ملاكا هبط بالأمس من السماء على جبل من جبال القمر ، ولم ينظر الا الى الهند ، فسأله « جهان دوست » عن سر اهتمامه بهذا البلد الخامد ، فأجاب :

كفت هـنكام طلوع خاوراست آفتاب تازه او رادر براست  
لعلها از سنك ره آيد برون يوسفان اوزجه آيد برون  
رستخيزى دركنارش ديده ام لرزه اندر كوهسا رش ديده ام  
اى خوش آن قومى كه جان او تيد از كل خود خويش راباز آفريد  
عرشيان راصبح عيد آن ساعتى  
جون شود بيدار جشم ملتى(٥)

### وترجمته :

قال : « الوقت وقت ارتفاع شأن الشروق ، لقد اكتنفته شمس جديدة .  
تخرج ازهار الشقائق من حجارة الطريق ، يخرج أسباه يوسف عليه السلام  
من الآبار . لقد رأيت في جنباته بعثا جديدا ، رأيت زلزالا في أقاليمه  
الجبلىة . نظربى لشعب ازدهرت روحه ، وخلق نفسه من طينه من جديد .  
هو يوم عيد للملائكة العرش ، يوم تصحو عين أمة من الأمم » (٦) .

وهكذا تبرز القضايا السياسية بالفلسفية ، وتطفو أحداث الهند  
الحديثة وقضاياها على مسرح الحدث الدرامى ، ويبتث الشاعر من خلال  
هذه الشخصية خواطره وآراه فى الإصلاح .

### أسد الله غالب :

يبدو الشاعر الهندى « أسد الله غالب » فى نظر اقبال ثوريا غيورا ،  
ولكن فى ميدان الادب وحده ، فالحانه ونواحه تعد مصدرا للهام الروح الانسانية  
التي تتميز بالضجر والقلق الحاد فى بحثها عن السلام الروحى .

لقد التقى اقبال بروح غالب فى فلك المشترى ، بينما كان يصاحب كلا

من حسين بن منصور الحلاج والشاعرة البابية قرة العين الطاهرة .  
فكانت هذه الأرواح الجليلة الثلاثة قد رغبت عن البقاء في الجنة وفضلت  
ان تجول الى الأبد ، كما أشار اقبال .

ويلتزم اقبال في هذه الفكرة عن غالب بشخصيته التاريخية ، فغالبا  
بيت مشهور من الشعر الفارسي بين فيه أن الجنة لا قيمة لها ان لم تكن  
وسيلة لاختلاس النظر الى الحبيب يقول فيه :

« ليس تمت سبيل لاختلاس النظر الى المحبوبة ، فليست هناك فتحة  
في جدار الجنة »

كما يلتزم اقبال بحدود شخصية غالب التاريخية حين ينقل غزلية  
من غزليات الفارسية مطلعها :

بياکه قاعده آسمان بکر دانيم قضا بکردش رطل کران بکر دانيم

تعال كي نبذل قاعدة السماء ، تعال كي نبذل التضاء بتمير كاس  
ثقیل من الخمر .

بل ويسأله عن معنى بيت قاله غالب نفسه بالأردية :

قمری کف خاکستر وبلبل قفس رنک ای ناله نشان جگر سوخته جیست  
وترجمته : القمرى قبضة من رماد ، والبلبل قفص من الألوان ، أيها  
الأنين ، ما علامة قلب يحترق ؟

وتحاول روح غالب ان تشرح له معنى البيت مبينة ان النواح الصادر  
من قلب العاشق يتفاوت تأثيره من عاشق لآخر ، او يختلف هذا التأثير  
في نفس العاشق من حين لآخر ، فالقمرى يهوت ويتحول الى حفنة من رماد  
بتأثير نواحه ، والبلبل يكتسب ألوانه بفضل النواح والأنين الذى يصدح  
به حيناً بعد حين (٧) .

وتبلغ متابعة اقبال لمعالم شخصية غالب التاريخية مبلغها حين يسأله :

صد جهان ببیدا درین نیلی فضااست

مرجهان را اولیا وانبیاست ؟

وترجمته : ان مئات العوالم ظاهرة في هذا الفضاء الأزرق ، فهل هناك أولياء وأنبياء في كل عالم ؟

وفي هذا السؤال تلميح للمناظرة التي جرت في سنة ١٨٢٠ بالهند بين « فضل حق الخير آبادي » المنطقي المعروف الذي لعب دورا حاسما في تخليص الدين من الخرافات و « اسماعيل شهيد الدهلوي » الملقب بمحيي السنة ، والذي قاد حركة اصلاحية بين مسلمي الهند ، وتعد دار الحوار بين العالمين الكبيرين حول هذا السؤال : هل يستطيع الله تعالى خلق نظير لخاتم النبيين محمد ﷺ أم لا يستطيع ؟ وكان « فضل حق » يدافع عن الرأي القائل بأن نظير الرسول ممتنع الوجود وليس تحت القدرة الالهية ، أما اسماعيل شهيد فكان يرى أن الله تعالى لا يخلق نظيرا لخاتم النبيين « لأن النبوة قد ختمت » الا أنه قادر على خلقه .

وكان غالب نفسه طرفا في هذه القضية ، فقد كان صديقا لفضل حق الذي طلب منه أن ينظم قصيدة يؤيد فيها وجهة نظره ويدافع عنها ، فكتب غالب مثنويا انتهى فيه لا الى تأييد رأى صديقه « فضل حق » وانما الى الدفاع عن وجهة النظر الأخرى حيث قال : « انظر وجه زينة العالم ، قبر واحد ، شمس واحدة ، خاتم واحد » . لكنه ما لبث أن أضاف قوله ان الله برحمته الواسعة يستطيع أن يخلق عوالم عدة ، وان كل عالم يمكن ان يكون له خاتم لأنبيائه « (٨) » .

وفي « جاويد نامه » يتمثل اقبال هذه القضية ويدخل في حوار مع روح غالب حول معنى هذا القول ، وتبدو روح غالب غير قادرة على الاجابة عن سؤال اقبال ، ومن ثم يتدخل الحلاج ليوضح المعنى ويبين أن محمدا رحمة للعالمين لا للعالم الانسان وحده ، ولا لاهل الأرض وحدهم ، ومن ثم فالعوالم كلها تنشده ، أي أنها تتحرك شوقا اليه ورغبة في الوصول الى درجته من الكمال والقرب من الذات الالهية .

والحق أن اقبالا جعل من حوارهم مع غالب حول « رحمة للعالمين » مدخلا لمناقشة قضية « الحقيقة المحمدية » التي تعد العماد الرئيسي لفلسفة الحلاج .

وهكذا بد لنا أن اقبالا قد احتفظ الى حد كبير بشخصية غالب التاريخية، واستمد من تراث الشاعر الكبير الخيوط الفنية التي استخدمها في نسج شخصيته التي بدت القضايا التي يعالجها معه اقبال قضايا فلسفية أكثر منها سياسية .

### جعفر البنغالي وصديق الدكنى :

استدعى الشاعر هاتين الشخصيتين لكى يبين من خلالهما خواطره وأفكاره حول الدور الذى تلعبه الخيانة فى حياة الأمم عامة والهند خاصة .

وهو يصطنع لغة رمزية عميقة تضافى على المعنى أبعادا نفسية جديدة، وتعمق فى نفس القارئ ذلك المفهوم الذى يريد اقبال أن يصوغه فى كلمات تلائل ، وتجعله يلح على أعماق القارئ ، فلا يكون مجرد فكرة سنحت — حين القراءة — ثم مضت ، وإنما يصبح معنى ملازما لنفس القارئ لايفادها، ويظل لصيقا بها الى أن تنتشره تماما ، فيتحول فى النهاية الى جزء منها لايتجزأ . والى خبرة جديدة تضاف الى خبراتها .

لقد كان جعفر قائدا لجيش المسلمين فى البنغال كما كان صادق قائدا لجيش السلطان تيبو فى الدكن ، وأكن هذين القائدين خانا أمانتهما فى أخرج موقف ، مما أدى الى زوال الحكم الإسلامى من هذين الاقليمين الكبيرين وسيطرة الانجليز عليهما فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى . فبدأوا باتخاذ الوسائل التى تكفل القضاء على هذه الروح الثائرة المتمردة فى المسلمين ، وحاولوا ازاحتهم عن مسرح الحياة العامة حتى يتوقعوا على انفسهم ، فيسهل فى النهاية سحقهم أمام ثقل الهندوس وضغطهم العددي الهائل .

والملاحظ أن اقبالا لم يعبا بالاشارة الى ملامح الشخصية التراثية لهذين الخائنين ، باعتبارين فى رأينا :

١ — أن كليهما معروف جيدا للمسلمين ، وتكفى فيه الاشارة :

جعفر ازبنكال وصديق اردكن

ننك آدم ننك دين ننك وطن



٢ — أن خيانتها تتجاوز مجرد خيانة قائد عسكري للملك في ميدان الحرب والقتال لتصبح تجسيدا للخيانة في كل العصور ، وفي العصر الحديث على وجه الخصوص ، يقول الشاعر على لسان «روح الهند» التي ظهرت على مسرح الحدث :

كى شب هنـدوستان آيد بروز

مرد جعفر زنده روح اوهـنوز

وترجمته : « متى يتحول ليل الهند الى نهار ، مات جعفر وما زالت روحه باقية » .

وروح الخيانة التي انددرت من جعفر وأمثاله تتخذ في تاريخ الهند الحديث أشكالا متباينة ويلبس أصحابها مسوحا مختلفة :

كاه اورا باكليسا سازباز كاه بيش ديريان اندر نياز

وترجمته : وهي تارة تتواءم مع الكنيسة (الانجليز) ، وتارة أخرى تستجدي عبدة الأصنام . وينتهي الشاعر الى هذا القول الفاصل :

الأمان از روح جعفر الأمان الأمان از جعفران اين زمان

والشاعر يضع الخائنين في زورق متهالك يوشك على الغرق وسط بحر عاصف من الدماء ( رمزا للدماء الزكية التي ذهبت ضحية خيانتها ) . تطير في جوه أفاع كأنها التماسيح ، وتزار أمواجه بشراسة النمر ، وهما في حالة سيئة للغاية .

وتبدو «روح الهند» وكأنها ملاك طاهر ، لكنه مكبل بالقيود والأغلال ، وتأخذ تنوح وتولول على حالة الهند في الآونة الحديثة ، مبينة أن على الوجود الاسلامي في الهند العفاء ان لم يدعم ذاتيته ويحكم بنيانه ، وأن الأوضاع في الهند — حينذاك — من الناحية الانسانية لا تتفق والعصر الحاضر ، وتستقد روح الهند الهناك قائلة « ان الانسانية متألة من وجودهم والعصر الحاضر يزدرى طهرهم ونجاستهم » .

ويأخذ أحد راكبي الزورق في النواح والانيين ، ثم يشرح محنتها بعد موتها ، فلقد ذهب الى باب جهنم طمعا في دخولها من شدة ما هما فيه من الكرب ، لكنها أوصدت ابوابها في وجهيهما ، فمضيا الى ملك الموت ،

وطلباً منه أن يفنى روحهما كي يستريحا من العذاب ، فقال لهما : انتي  
لا أهدم الأرواح وإنما أهدم الأجساد فحسب ، وروح الغدر لا تستريح  
بالموت . ثم تشرع روح الخائن في الاستنجاد بالجو ، والبحر ، والأرض ،  
والسماء ، والنجوم ، والقمر ، والشمس ، وبسادة الغرب ، وتقول :  
« ما مولى للعبد الخائن » .

ولا تلبث الأمواج في بحر الدماء أن ترتفع فتبتلع الزورق وتغرق الجبال  
والوديان في الدم .

### شرف النساء :

حظيت المرأة بعناية اقبال في « جاويد نامه » ، فلقد ناقش دعوة تحرير  
المرأة في فلك المريخ ، وبين الأضرار التي تنطوي عليها تلك الدعوة والآثار  
الذميمة المترتبة عليها . كما كان للمرأة نصيب من المشاركة في الشخصيات  
التراثية الهندية التي استخدمها الشاعر في « جاويد نامه » . وقد تولت  
تمثيلهن شرف النساء حفيدة عبد الصمد خان ، حاكم إقليم البنجاب في الفترة  
من ١٧١٣ — ١٧١٦ ، وكان قائدا عسكريا مغوارا في عهد السلطان « بهادر  
شاه » ، وتمكن بعد محاولات عديدة في سنة ١٧١٤ من احباط ثورة « السك »  
الجامحة في شمال الهند التي راح ضحيتها آلاف من المسلمين والهندوس  
على السواء .

لقد احتفظ شاعرنا بالاطار العام لشخصية شرف النساء التاريخية  
وأراد من خلال هذه الشخصية أن يوجه رسالة الى المسلمين ، ويبين أن  
الخصيصة التي انفردت بها هذه المرأة كانت خيرا وبركة عليها بعد موتها ،  
فلقد كانت حريصة في حياتها على أن تجمع بين القرآن والسيف ، ولم تعرف  
في حياتها سوى أربعة أشياء ، هي العناصر الرئيسية لحياة المسلم في رأى  
اقبال وهي « الخلوة والسيف ، والقرآن والصلاة ، ألا ما أطيب العمر الذي  
انقضى في الابتهاال » .

لم تجاهد شرف النساء لأن الجهاد ليس فريضة على النساء ، ولكنها  
أعطت من نفسها المثل للرجال ، وكانت تتقلد السيف مؤكدة لهم أن المصحف  
والسيف قوتان تحفظ كل منهما الأخرى .

ويضع الشاعر شرف النساء في تشر من اللؤلؤ النقى في جنة الفردوس  
ويجعلها في زمرة مجموعة من الدراويش « السيد على الهمداني ، الملا طاهر  
غنى الكشميري والشاعر بهترى هري .

لقد اختار اقبال ما يناسب دعوته من ملامح شخصية شرف النساء ،  
واستطاع أن يؤول ملامحها تأويلا خاصا ، وأضفى عليها نوعا من المعاصرة  
وبين أن أهل البنجاب عندما تركوا العمل بمبادئ شرف النساء طوت  
دورة الأيام بساطهم .

مرد حق از غير حق انديشه كرد  
شیرمولا روبهی رابیسه كرد  
از دلش تاب و تب سیماب رفت  
خود بدانی آنجه برینجاب رفت  
خالصة شمشر وقرآن راببرد  
اندران کشور مسلمانی بمرد

فقد خاف رجل الحق ( المسلم ) من غير الحق ( السك ) ، واحترف اسمه  
الله شرعة الثعلب . مضت من قلبه الطاقة وحرارة الزئبق ، الست تدرى  
انت ماجرى على البنجاب . ذهبت الخالصة ( السك ) بالسيف والقرآن (١)  
ومات الاسلام في تلك البلاد .

### السيد على الهمداني :

لا شك أن استدعاء شاعرنا لشخصية السيد على الهمداني إنما يدل  
على وعى الشاعر بترائه الهندي والاسلامى معا ، واستيعابه لهذا التراث  
استيعابا كاملا ، فليس هناك رجل يعرف أهل كشمير قدره ويذكرون  
فضله ويصيخون السمع لتوجيهاته وإيماءاته مثل السيد على الهمداني ،  
فاكثر المسلمين في كشمير اليوم قد أسلم أجدادهم على يد هذا الرجل (١٠) الذي  
فر من فارس ( سنة ١٣٨٨ م ) هاربا من بطش « تيمور » وصحبه سبعمائة  
سيد ، وأسلم على يديه آلاف مؤلفة من أهل كشمير ، واستطاع بمن جاء معه  
من الصوفية المستنيرين أن يحيلوا كشمير الى منطقة زاخرة بالصناعات

البديعة والحرف الرفيعة التي ما تزال تشتهر بها إلى اليوم ، بحيث أصبح بالإمكان تسميتها « إيران الصغيرة » ، لبراعة أهلها في الفنون ولتفوقهم في المهارات الحرفية المنقولة عن الإيرانيين : يقول الشاعر :

مرشد آن كشور مینو نظیر  
میر ودرویش وسلاطین رامشیر  
خطه را آن شاه دریا آستین  
داد علم وصنعت وتهذیب ودين  
آفرید آن مرد ایران صغیر  
باهنر هائی غریب ود لیذیر  
یک نگاه او کشاید صد کره  
خیز وتیرش را بدل را هی بده

معناه : هو مرشد ذلك البلد الشبيه بالزمرد ، وهو مستشار للأمراء والفقراء والسلاطين . انه ملك جواد كالمحيط ، أعطى الخطة ( كشمر ) العلم والصناعة والحضارة والدين . خلق ذلك الرجل إيران صغيرة ، بفنون غريبة جذابة . انه بنظرة واحدة يحل مئات العقد ، فاجعل لسهمه طريقا الى قلبك . وهكذا احتفظ اقبال بكل الملامح الذاتية — تقريبا — في استدعائه لهذه الشخصية التي تبدو — رغم كونها فارسية الاصل — مهتمة اهتماما خاصا بالشئون الهندية عامة وبكشمير بوجه خاص ، فالهمداني ان كان يعنى لاهل فارس وايران شيئا واحدا ، يعنى لاهل كشمير الكثير ، تتغلغل انجازاته الثقافية والحضارية في أعماق كيانهم وأصول حياتهم . ومن هذا المنطلق استخدم شاعرنا شخصيته واختار من ملامحها ما يناسب تجربته الذاتية ، وأجرى على لسانها آراءه في قضية الخير والشر ، ثم عرض عليها مشكلات كشمير ، وبين الشاعر أمام الهمداني أنه لا يؤخذ بسحر الربيع في كشمير ولا بجمال الطبيعة فيها ، وإنما يهمه أن يكون في كشمير رجال ذوو بأس شديد مثل السلطان شهاب الدين (١١) .

عمرها كل رخت بربست وكشاد      خاك ماد يكر شهاب الدين نژاد

وترجمته : لسنوات عديدة حزم الورد متاعه ثم تفتح ، ولكن أرضنا لم تباد شهاب الدين آخر .

وفي عرضه لقضايا كشمير أمام السيد على الهمداني يشير انشاعن الى معاهدة « امر يتسر » التي باع الانجليز كشمير بمقتضاها لجلاب، سنج ، زعيم طائفة السك في مارس ١٨٤٦ . ويرد عليه الهمداني موضحا أن الأمم لا تنهض ولا تتخلص من نير الظلم الا اذا أحكمت ذاتها وقوت ايمانها بنفسها وببلاطاتها وضحت بنفسها ، لأنها اذا طلبت الموت رهبت لها الحياة ، ثم يقول :

می توان ایران و هندوستان خرید  
باد شاهى رازكس نتوان خرید

جام جم را ای جوان باهنر  
كس نكرد از دكان شیشه كر  
ور بكرد مال او جز شیشه نیست  
شیشه را غير از شكستن بیشه نیست

وترجمته : قد تستطيع شراء إيران وبلاد الهند ، لكن الملك لا يمكن شراؤه من أحد . فالملك شيء نادر الوجود شأنه شأن كأس جم ، وهو كأس لا يمكن لأحد — أيها الشاب الفاضل — أن يجلبها من دكان الزجاج ، ولو أن أحدا جلبها فلن يكون ما يملكه سوى الزجاج ، وليس للزجاج من خاصية سوى الكسر .

فالملك إذن لا يباع ولا يشتري ، وليس لأحد أن يحكم شعبا ضد ارادته، وليس من حق السك أو غيرهم أن يتحكموا في كشمير .

وهكذا تم للشاعر تحويل هذه الشخصية التراثية وأضفى عليها دلالة معاصرة باهتمامها بأحوال كشمير في الآونة الحاضرة .

### الملا طاهر غنى الكشمير (١٢) :

استدعى اقبال شخصية هذا الشاعر الصوفي ليعبر به ومن خلاله عن خواطره وأفكاره حول كشمير ، وقد وضعه في نفس المقام الذي وضع فيه السيد على الهمداني ، في الفردوس ، واحتفظ له بالملمح الرئيسي لشخصيته وهو كونه شاعرا .

ويستعير اقبال بيتا من شعر غنى ، ويتخيل أن هذا الشاعر — برغم وجوده في جنة الفردوس — يئن ويتوجع وهو يترنم بهذا البيت :

جمع کردم مشت خاشاکى که سوزم خویش را  
کل کمان دارد که بنـدم آشیان در گلستان

وترجمته : جمعت قبضة من القش كى أحرق بها نفسى ، بينما تظن الوردة اننى سأبنى عشا فى الروضة .

ويبدو اقبال معجبا بوجه خاص بشعر هذا الشاعر ، وبأسلوبه فى الحياة القائم على « الفقر » أى على الذكر والفكر معا :

شاعر رنکین نوا ظاهر غنى . فقـر او باطن غنى ظاهر غنى

وترجمته : هو طاهر غنى شاعر ذو صوت متعدد الالوان ، فقره باطنه غنى ظاهره غنى .

ويبدأ اقبال بعد ذلك فى اصفاء طابع المعاصرة على هذه الشخصية ، فيعرض من خلالها لقضية الحرية فى الهنة الحديثة ، ويشيد ببراهمة كشمير — وعلى رأسهم موتى لعل نهرو وجواهر لال نهرو — الذين علموا أهل الهند هذا التوق الى الحرية :

هـندرا اين ذوق آزادى که داد  
صيد راسوادى صيادى که داد ؟  
آن برهمن زاد کان زنده دل  
لاله احمر زروى ايشان خجل  
أصل شان از خاک دا منکیر ماست  
مطلع اين اختران کشمير ماست

وترجمته : من الذى أعطى الهند هذا التوق الى الحرية ، من الذى أعطى الفريسة التطلع لأن تكون هى نفسها الصياد ؟ انهم سلالة البراهمة ذوو القلوب الحية . توقد وجوههم يجعل الشقائق الحمراء خجل من حمرة وجوههم ... ان أصلهم من ترائينا هذا المعترض ، ولا غرو فمطلع هذه الكواكب من كشميرنا .

وينقل اقبال — على لسان غنى — حوارا بين موجتين في بحيرة « ولر »  
أحدى بحيرات كشمير ، تبين احدهما للأخرى أن الحركة حياة للموج وأن  
الركون للساحل والنوافق معه موت زؤام . والشاعر يرمز بالساحل هنا  
الى الاخلاص الى الراحة والخضوع للأمر الواقع ، وهو ما يراه اقبال فناء  
للوجود الاسلامى فى كشمير وغيرها .

وتنبعث روح التفاضل بمستقبل كشمير من روح غنى — فى صورته  
المعاصرة التى أبدعها اقبال فيشمير الى أنه لا داعى لليأس من أهل كشمير ،  
يقول :

دل ميان سينه شان مرده نيست  
اخكر شان زيرينخ افسرده نيست  
باش تابينى كه بى آواز صـور  
ملتى بر خيـزد ازخاك قبـور

وترجمته : أن قلوبهم ليست ميتة فى صدورهم ، وجوارهم ليست خادمة  
تحت الثلوج . فاصبر حتى ترى أمة تنهض من تراب القبور دون صوت الصور .  
وصورة غنى المعاصرة تستوعب تجربة اقبال الذاتية وتعبر عنها تعبيرا  
صادقا ، حين تقدر الشعر حق قدره وتدرك أثره ، فالشعر يفعل فعل السحر  
فى القلوب ، ويحيى الأمم الى تبدو للعيان وكأنها قد ماتت :

ازنوا تشكيل تقديرا مم ازنوا تخريب وتعميرا مم  
ومعناه : أن أقدار الأمم تتشكل بأغنية ، وبأغنية تخرب الأمم وتعمر .

### بهر ترى هرى :

الشخصية الثانية من الشخصيات غير الاسلامية — بعد جهان دوست —  
هى بهر ترى هرى .

وتطل هذه الشخصية الهندوسية فى « جاويد نامه » بوجهها التاريخى  
ولكنها تلبس عباءة اسلامية ، وتعيش فى مقام لايتاح الا للصالحين المؤمنين  
بوحداية الله عز وجل .

وبهر ترى هرى من أحب شعراء الهندوس الى قلب اقبال ، فقد خصص له مقطوعة في ديوانه « بال جبريل » ، ثم عاد في « جاويد نامه » ، وأعطاه مقاما مع الدراويش الفقراء في ائفردوس . وهو معجب بشخصيته وبأدائه الشعري (١٢) . فلقد جمع بهرتري في نفسه مجموعة من المحاسن فكان شاعرا وفيلسوبا وأميرا وزاهدا .

على أن الملمح الرئيسى الذى استخدمه اقبال فى نسج شخصيته المعاصرة — التى يقدمها لنا فى « جاويد نامه » — لا يتعدى كونه شاعرا يختلط شعره بالفلسفة والحكمة ، تتصف معانيه وأخيلته بالحدة والطرافة ، ويستمد أشكاله من حركة الحياة يقول :

آن نوا برداز هندی رانکر  
شبنم ازفیض نکاه او کهر  
نکته آرائی نامش برتری است  
فطرت او جون سحاب آذری است  
ازجن جز عنجه نورس نه جید  
نغمه توسوی ما اورا کشید  
کارگاه زندگی را محرم است  
اوجم است وشعر اوجام جم است

وترجمته : انظر ذلك المنشد الهندى ، ان الندى يتحول — بفيض نظرتيه — الى جوهر ثمين . انه بليغ فى أداء الدقائق اسمه « برترى » ، فطرته ، عبقرية مثل سحاب نارى . لم يقتطف من الخيلة سوى برعمة حديثة النضج ( فمغانيه وأخيلته جديدة تماما ) ، ولقد جذبتة نغمتك نحونا . هو صديق حميم لمعمل الحياة ، هو جم وشعره كأس جم .

ومثلما فعل اقبال مع طاهر غنى ، يجرى هنا حوارا حول الشعر مع برترى ، ويسوق على لسان هذه الشخصية أبيانا فى فن الشعر يعبر فيها عن تجربته الذاتية ، ويبين فيها مدى ما لهذا الفن من تأثير فى حياة الناس ، بشرط أن يكون الشاعر متحرق القلب لا يتر له قرار . لا تجد روحه لذة إلا فى البحث ، ولا يحصل شعره على قوة التأثير الا اذا اندفع من مقام الارادة وتجديد المقاصد والأهداف .



ولكن كيف تسنى لهذه الشخصية التي تبدو وثنية غير موحدة بالله أن ترقى لهذا المقام في الفردوس ؟

لتوضيح السبب في هذا التناقض يتخلّى اقبال عن الشخصية التي ابتدعها لبهرترى هرى ويعود الى شخصيته التاريخية فيقتبس من شعره قصيدة كان قد كتبها باللغة السنسكريتية ، ثم ترجمها اقبال الى الفارسية وجعلها ردا على سؤال وجهه الى « بهترى » عن رأيه في الاصلاح الاجتماعى للهند في العصر الحديث . والبيت الأول من هذه القطعة يشير الى ايمان بهترى بالله وبوحدانيته وتعاليه على الماديات يقول بهترى هرى ، في أول بيت من القطعة اننى نقلها عنه اقبال :

اين خدايان تنك مايه زسنك اذد وزخشت  
برترى هست كه دور است ز دير وز كنشت

وترجمته : هؤلاء الآلهة ذوو الطابع الهش هم من الحجارة والاجر ، وهناك واحد أكثر سموا وهو بعيد عن الدير والكنيسة .

وتنطوى نفس القطعة على آراء في الاصلاح الاجتماعى للهند كانت تصلح في عصر « بهترى » كما تصلح في العصر الحديث وفي كل العصور .  
اذ يدعو الزنود الى العمل ، « بينا أن الجزاء من جنس العمل .

بیش آئین مکافات عمل سجده کدار  
زانکه خیزد زعمل دوزخ واعراف وبهشت

وترجمته : اسجد أمام قانون جزاء العمل ، فالعمل ينجم عنه : جهنم والأعراف والجنة .

### السلطان الشهيد تيبو (١٤) :

لم يكن بوسع اقبال أن يعثر في التاريخ الاسلامى لبلاد الهند على شخصية يعبر من خلالها عن خواطره وأفكاره حول فريضة الجهاد وفضيلة الشهادة مثل شخصية السلطان الشهيد فتح على تيبو ، فكم جاهد هذا الرجل للدفاع عن الحق ، وكم خاض من معارك ضد الباطل حتى خر شهيدا في ميدان القتال .

والحق ان شاعرنا نجح نجاحا كبيرا في استدعائه لهذه الشخصية التي لم يحتفظ لها بملامحها الرئيسية فحسب ، وانما صاغها صياغة جديدة جعلها تعكس في نفسها صور البطولة الاسلامية وتضم بين جوانحها تجارب الأبرار الذين سبقوها في ميدان الجهاد والاستشهاد .

المبادئ التي يعتنقها شاعرنا اقبال عن حقيقة الحياة والموت والشهادة تتدفق على لسان السلطان الشهيد ، فالحياة لاقية لها الا بدعم الذات وتنمية ملكاتها . والموت ليس بشيء تعتد به النفوس الطاهرة القوية لأنه مجاز — ليس الا — لمرحلة أفضل من مراحل الحياة ، لذلك نجد البطل ينقض على الموت ، ولا ينقض الموت عليه :

می فتد برمرك آن مرد تمام      مثل شاهین که افتد برحمام

ومعناه : ذلك الرجل الكامل ينقض على الموت مثلما ينقض الصقر على الحمام .

أما الشهيد فالموت عنده له شأن آخر :

کرجه هرمرک است برمومن شکر  
مرك بور مرتضى جـیـزی ذکر

وترجمته : ومع أن كل موت بالنسبة للمؤمن حلو عذب المذاق ، فان موت ابن المرتضى — الحسين بن علي رضي الله عنهما — شيء آخر .

وفي تلخيصه لشرعة الاسلام في الجهاد يسوق شاعرنا على لسان السلطان الشهيد أبياتا من درر الشعر يبين فيها أن الجهاد ليس حربا من أجل التسلط والغلبة ، بل هو محاولة لاعلاء كلمة الحق تعالى ، وأن الشهيد وحده هو الذي يستطيع أن يدرك معنى قول النبي — ﷺ — « الجهاد رهبانية الاسلام » ، يقول :

آنکه حرف شوق با اقوام کفت  
جنک را رهبانیء اسلام کفت

کس نداند جز شهید این نکته را  
کو بخون خود خرید این نکته را

ومعناه : أن من قال كلمة العشق للأنام ( يعنى الرسول ﷺ ) قال :  
الجهاد رهبانية الاسلام . لا أحد يعرف هذه الحقيقة سوى الشهيد ، فلقد  
اشترى هذه الحقيقة بدمه .

ويضفى شاعرنا على هذه الشخصية طابع المعاصرة حين يبعث من  
خلالها رسالة شاملة الى أهل الدكن يوجهها السلطان تيبو الى نهر « كاويرى »  
الذى يلتف حول عاصمته سرنجابتم ، مؤكداً فى الرسالة أن الخلاص من  
الاستعمار لن يتم الا بدعم الذات ، يقول :

جون برويد آدم ازمشت كلى      بادلى ، بآرزوى ، دو دلى

ومعناه : كيف ينبت الانسان من قبضة تراب ، بالقلب ... بارادة  
فى ذاك القلب .

ويستعير الشاعر قولاً مأثوراً للسلطان الشهيد : أن تعيش لحظة أسداً  
هصوراً ، خير لك من أن تعيش مائة عام كابن آوى . ويضمن اقبال هذا القول  
بيتاً من الشعر .

ويستدل لفظة النعجة بلفظة ابن آوى (١٥) حتى يستقيم الوزن فيما يبدو ،  
يقول :

زندكى راجيست رسم ودين وكيش  
يك دم شيرى به ازصد سال ميش

ومعناه : ما قانون الحياة ودينها ومذهبها ؟ كن كالأسد لحظة أفضل  
من عيشك مائة عام نعجة .

وفى حوارهِ مع السلطان الشهيد ، يشير اقبال الى الزيارة التى قام بها  
للدكن سنة ١٩٢٩ حيث ألقى عدداً من المحاضرات أحدثت دويماً كبيراً هناك  
فى تلك الفترة ، يقول :

تخم اشكى ريختم اندر دكن  
لاله هارويـد زخاك آن جمن

ومعناه : لقد ذرفت بذرة من الدمع فى الدكن ، فهل تنمو الشقائق  
من أرض تلك الروضة .

وعلى لسان السلطان الشهيد أيضا يشيد اقبال بروعة شعره ومدى تأثيره ، حتى أن النبي ﷺ أعجب بهذا الشعر وبمغزاه ودلالته عندما سمعه من تيبو نفسه . يقول تيبو محدثا شاعرنا :

بوده ام در حضرت مولای کل  
آنکه بی اوطی نمی کرد دسبیل  
سـوختم از کرمی اشعار تو  
بر زبانم رفت از افـسـکارتو  
گفت: این بیتی که برخواندی زکیست  
ازدرو هنگامه های زندگی است

ومعناه : لقد كنت في حضرة مولی الكل ( یعنی النبي ﷺ ) ، ذلك الذي لا تطوى بغيره السبيل . لقد كنت مشتتلا بحرارة اشعارك ، وجاء على لساني طرف من افكارك . فقال المصطفى :

ان هذا البيت الذي انشدت ؟ ان فيه نبض الحياة .

حقا ، لقد أبدع اقبال في رسم صورة متينة للسلطان الشهيد مفعبة بالحيوية ، مصبرة عن تراث هائل من البطولة والجهاد ، وتاريخ حافل بالبسالة والاستشهاد .

وهكذا احتفظ اقبال بالملاحم التراثية الرئيسية لكل واحدة من هذه الشخصيات ، ومنحها قدرة على تخطي الزمن التاريخي باعطائها نوعا من المعاصرة ، وجعلها معادلا موضوعيا لتجربته الذاتية ، فعبر بها عن ذات نفسه ، وأجرى على سنتها خلاصة خواطره وآرائه .

ولقد كان لاستدعاء اقبال لهذه الشخصيات التراثية الهذنية وغيرها من الشخصيات في منظومته « جاويد نامه » أكبر الأثر في اغناء المنظومة وبلوغها هذه المرتبة الادبية الرفيعة ، ونيلها لهذه المكانة العالية المتميزة بين روائع الأدب العالمي .

## الهوامش

- (١) كان محمد اقبال قد دخل المعتكف السياسى فى الهند عام ١٩٢٦ ، قبل نظم « جاويد نامه » بوضع سنوات . راجع عبد السلام الندوى ، اقبال كامل ، ص ٢٥ ، طبع اعظم كره ١٩٦٤ م .
- (٢) راجع مقال ت.س. اليوت : الاتباعية والموهبة الفردية ، (١٩١٧) وانظر أيضا الدكتور على عشرين زايد : استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى ، طرابلس ١٩٧٨ ص ٣٣ .
- (٣) فى مقدمة ترجمته الايطالية لـ « جاويد نامه » . Il Poema Celesta .
- (٤) فى شرح جاويد نامه ، ص ٣٨٠ .
- (٥) محمد اقبال : جاويد نامه ، طبع لاهور ١٩٤٥ م ، ص ٣٦ — ٣٧ .
- (٦) راجع : محمد السعيد جمال الدين : رسالة الخلود ، طبع مصر ١٩٧٤ ، ص ١٠٠ .
- (٧) راجع مقالا للاستاذ « دار » نشره بالانجليزية بمجلة « اقبال ريفيو — باكستان » ، بعنوان « غائب واقبال » اكتوبر ١٩٦٩ ، ص ٢٥ — ٤٤ .
- (٨) انظر كليات غالب ، ص ١٣٦ — ١٣٧ .
- (٩) الاشارة هنا الى ما حدث فى ثورة « السك » فى البنجاب فى سنة ١٨٤٠ م حينما حاجم المتمردون متبرة « شرف النساء » وبشوها ظنا منهم انهم سيجدون كنزا بداخله ولكن لم يجدوا بداخل القبر سوى مصحفها وسيفها ، وكانت قد اوصت قبل وفاتها بوضعها فى تربتها ، فذهب المتمردون بهما .
- (١٠) راجع : توماس آرنولد : تاريخ الدعوة الى الاسلام ، الترجمة العربية ، ( مصر ١٩٤٧ ) ص ٢١٠ . وارجع أيضا : يوسف سليم جشتى ، شرح جاويد نامه ، ص ١٠٢٨ .
- (١١) ظن آربرى خطأ ، فى ترجمته الانجليزية لجاويد نامه ( ص ١٤٩ ) ، أن اقبالا يعنى به شهاب الدين الغورى . فلم يولد الغورى فى كشمير . وانما يعنى به شهاب الدين الابن الثالث للسلطان شمس الدين ، وقد تولى الملك فى سنة ٧٥٧ هـ . ( ١٣٥٤ م ) . كان شجاعا وقف حياته على الفوز ، وهو الذى استقبل السيد على الهمدانى عند قدومه هاربا من فارس ، وأجله وأكرم وفادته ، وتوفى شهاب الدين فى سنة ٧٧٥ هـ . انظر : يوسف سليم جشتى : شرح جاويد نامه ، ص ١٣٣ — ١٣٤ .
- (١٢) كان من أشهر الشعراء فى بلاط « شاهجان » ، وكان صوفيا . واقبال يقدر اشمساره الفارسية تقديرًا كبيرا . راجع : محمد اقبال : « بياض مشرق » ، ص ١٦٠ .

(١٣) كان بهرتري هري منغمسا في شبابه في مآذات الحياة ، ولكنه مالبث أن تخلى بكل شجاعة وقوة إرادة عن الترف والحكم وسلك سبيل الزهد والتقشف بحثا عن الحقيقة العليا .

(١٤) ولد في سنة ١٧٤٩ ومات في سنة ١٧٩٩ ، وقضى حياته كلها مجاهدا . وكان معروفا بالبسالة والشجاعة في الحروب ضد الانجليز وغيرهم في أيام أبيه « حيدر علي » سلطان ميسور . وتمكن بعد توليه الحكم من اكتساح المناطق المجاورة التي كان يسيطر عليها الانجليز حتى وصل الى حدود مدراس . ١٧٩٠ . ولكن الانجليز حشدوا قواتهم للضغط على تيبو فاضطر الى التراجع سنة ١٧٩٢ . ومالبث الانجليز عن طريق اتصالاتهم بقائده الخائن « مير صادق » أن تمكنوا من السيطرة على عاصمته سرنجا بتم ، وسقط تيبو في المعركة شهيدا .

(١٥) استخدم السلطان الشهيد كلمة « كيدر » الأردية بمعنى ابن آوى ، بينما استعمل اقبال كلمة « ميش » الفارسية بمعنى نعجة .